الأبعاد التاريخية والفكرية لأزمة شمال مالي

سيدي المختار محمد الصالح ديالو *

نهوضاً بواجب النصح ورأب الصدع، وتحقيقاً للتضامن الإسلامي والتعايش السّلمي بين سكّان المنطقة، رأينا كتابة هذه السطور عن الأبعاد التاريخية والفكرية للأزمة الحاليّة التي تعيشها دولة مالي في مناطقها الشماليّة.

ذلك لأن معرفة الجذور التاريخية لأزمة مّا، ومعرفة الأفكار والتصوّرات التي تحرّك أطرافها، تساهم بفاعلية في تحقيق إصلاح ذات البين بين الأطراف المتنازعة، وحلّ الأزمة بشكل ناجع بإذن الله تعالى؛ إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره.

وسيدور هذا الموضوع حول سكان شمال مالي قديماً وحديثاً، واسم هذه المنطقة التاريخي، ومحرّك هذه الأزمات في مالي، والأفكار والتصوّرات الباعثة للقوم إلى هذه التحرّكات، والتصوّر المستقبلي لواقع المنطقة وواجب أبنائها.

أولاً: من هم سكان شمال مالي قديماً وحديثاً؟ وما اسم هذه المنطقة التاريخي؟:

الحقيقة؛ أنه لم تكن ثمّة حاجة لطرح مثل هذا السؤال لولا ما نشهده ونسمعه في الآونة الأخيرة من بعض أبناء هذه المنطقة من تصريحات تصطدم مع الحقيقة التاريخية للمنطقة وواقعها الحالي، حيث يدّعي هؤلاء أن المنطقة اسمها «أزواد»، وأنها ملك الطوارق وإرثهم، وأن معركتهم هي لاسترداد حقّهم التاريخي بكامله[1].

والحقيقة؛ أن شمال مالي الحالية - كما هو معلوم من كتب التاريخ والواقع المعاصر - هو موطن قبائل الصنغاي، وهم قبائل سودانية سكنت ضفاف نهر النيجر على امتداد كبير، ولأمد يعود إلى فترة ما قبل التاريخ الميلادي، فقد ذكر السّعدي ما ملخصه: أنهم موجودون منذ وقت بعيد جداً، منذ زمن الفراعنة، وأن بعض سحرة فرعون أتوا من الصنغاي، وكان تأسيس المملكة الأولى على يد رجلين من اليمن نزلا عند الصنغاي، واختلطوا بهم فتناسلوا وتكاثروا، إلا أن تاريخ مجيء هذين الرجلين ليس معروفاً بدقة[2].

وتذكر الروايات التاريخية: أن قبيلة «لمطة» البربرية تاقت نفسها إلى إحداث تغيير في نظام حياتها الرتيبة داخل الصحراء، وذلك بالتوجّه بعيداً نحو الجنوب، واستمرت في مسيرتها وترحالها متوغلة في المناطق وفيرة المراعي، إلى أن وجدت نفسها في النهاية على ضفاف نهر النيجر اليسرى[3].

وهذه الروايات لا تذكر بدقة متى توجّه البربر نحو الجنوب ليصلوا إلى ضفاف النهر.

والذي لا يختلف فيه المؤرّخون أن هذه المناطق ليست بموطن أصلي للطوارق وإنما هاجروا إليها، تحت ظروف مختلفة، وفي فترات تاريخية مختلفة، يقول

(*) المدير العام لمعهد الأمل التقني المهني في باماكو، ومدرس الفقه المقارن في جامعة الساحل في باماكو مالي.

(١) انظر مثلاً مقال: الحق التاريخي الأول، المنشور بتاريخ ٢٠١٢/١٢/٣١م، والمقال منشور على هذا الرابط: http://ar.mnlamov.net/index.php/constants/37sn/48concepts.html

(٢) انظر التفاصيل في: تاريخ السودان، لعبد الرحمن بن عبد الله السّعدي، نشر المكتبة الأمريكية والشرقية، باريس ١٩٨١م، ص ٤.

(٣) انظر التفاصيل في كتاب: أسكيا الحاج محمد وإحياء مملكة الصنغاي الإسلامية، للدكتور منصور فاي، نشر كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، ط ١ - عام ١٩٩٧م، ص ١٥ - ١٧.

القشـاط: «ولم يكن هذا – ويقصـد الصحراء الكبرى – موطـن الطوارق الأصلي، فلقـد تزحزح الطوارق من الشمال إلى الجنوب موغلين في الصحراء، إما هرباً من الجيوش التي كانت تهاجم الشمال (الرومان – الوندال – البرتغال – الإسبان – الفرنسيون)، وذلك هروباً بحريتهم، وإما اندفاعاً نحو إفريقيا لنشر الإسلام والاستيلاء على الممالك والسـيطرة عليها»[1]، وهذا الكلام صريح على وجود ممالك للصنغاي قبـل مجيء الطوارق للصحراء، وقبل توجّههم نحو الجنوب الصحراوي.

وأما أصـل الطوارق والمـكان الذي نزحـوا منه؛ فالروايات في ذلك متضاربة بين كونهم من شمال إفريقيا وبين كونهم من المشـرق الإسلامي، وتحديداً من اليمن، وفي ذلك يقول القشـاط نقلاً عن غيره[2] قوله: «وبصفة عامة؛ فإن دراسـة الروايات الشـعبية الطارقية، والواقع الجغرافي، وأسماء القبائل، والملامح البشرية، والعقليات القبلية، والعـادات المحلية لمختلـف القبائل الطارقية القاطنـة جنـوب الصحراء الكبـرى – النيجـر ومالي وبوركينافاسو –، تجعلنا نستشعر ونرجّح أن لهذه القبائل الطارقية علاقات تاريخية أوثق بثلاث مناطق من الشمال الإفريقي، وهي: ليبيا والمغرب الأقصى وموريتانيا»[3].

ويقول السّـعدي عـن الطوارق: «وهـم ظواعن في الصحـراء، رحّالة لا يطمئن بهم منـزل، ليس لهم مدينة يأوون إليها، ومراحلهم في الصحراء مسـيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم على دين الإسلام، واتباع السنّة، وهم يجاهدون السودان وصنهاجة، ويرفعون أنسابهم إلى حمير»[4].

هذه النقول تفيد أن الطوارق، في فترة ما من فترات التاريخ، طمعوا في تملّك الممالك القائمة وبسط سيادتهم عليها، الأمر الذي تمكّنوا منه بشـكل ملاحظ في القرن الحادي عشر في إطار دولة المرابطين.

وهل تمكّنوا من ذلك قبل هذا التاريخ في دولة الصنغاي؟ سؤال تأخذ الإجابة عنه حيزاً كبيراً؛ نظراً لاختلاف الكتّاب في أصول الأسـرة الأولى التي حكمـت الصنغاي – أعني أسـرة زا – هل هي من السـود أو البيض؟ بل في الأسرة الثانية، أسـرة سـني أيضاً، والذي ليس حولـه جدال، أن الطوارق تمكّنوا في فترة من فترات التاريخ من حكم منطقة تمبكتو، بعد حكم إمبراطورية مالي لها، وهذا وارد في كتب التاريخ المعتمدة، وهو ما يُفهم من قصة أسـكيا محمد مع قاضيه على تمبكتو (محمد بن عمر)، حيث استدعاه أسكيا محمد ذات مرة، لمّا كان قد وصل إلى سـمعه أن القاضي المذكور طرد بعض رسـله بعد منعهم مـن القيام بمهامّهم في تمبكتو، وكان من ضمن أسـئلة أسكيا للقاضي: «أرسلت رسـلي في حوائجي، وأمرت بأمري في تمبكتو، فترد رسلي وتمنعهـم من تنفيذ أوامري! ألم تكـن تمبكتو في يوم تابعة لحاكم مالي؟... ألم يكن الطوارق سلاطين فيها»[5].

فهذا الكلام من الملك العادل أسكيا محمد تفيد أن الطوارق كانت لهم سلطنة في تمبكتو، وهذا أكّده السّعدي في تاريخه عندما تحدّث عن الملك سـني علي بير، حيث قال: «إن الطوارق تمكّنوا من انتزاع سيادة تمبكتو من مالي سنة ١٤٣٣م، وعيّنوا عليها حاكماً تابعاً لهم، وكان الحاكم ذكياً، أراد أن ينجو من زحف سـني علي، فكتب له خطاباً رقيقاً بالسلام والدعاء، وذكر فيه أن لا ضرورة لسني علي بـأن يزحف على تمبكتو؛ لأن حاكمهـا يعترف بالولاء له، وبأنه من جملة عياله، وقنع سـني علي بذلك، فلمّا توفي هـذا الحاكم (وهو محمد نض) وتولّـى ابنه عمر محمد نض، كتب لسـني بعكس ما كتب أبوه، وهـدّد بأن القوة متوافرة عنده، ومن تعرض له رأى ما لديه من القوة، فقال سني علي لأصحابه: «شتّان ما بين عقل هذا الفتى وعقل أبيه»، وهاجم تمبكتو سـنة ١٤٦٨م، وكان ذلك من أسباب

---

(١) د. محمد سعيد القشاط: التوارق عرب الصحراء الكبرى، نشر مؤسّسة ذي قار، ط ٣ – عام ١٩٩٩م، ص ٢٢.

(٢) نقله عن محمد أحمد الشفيع، وهو من الكتّاب المعروفين، من طوارق النيجر، وهو من مشايخي، فقد درّسني في الجامعة الإسلامية بالنيجر مادة الفكر الإسلامي ومناهج الدعوة، وهو رجل خلوق ومحترم، يحب أبناء هذه المنطقة دون تمييز عنصري، وكان يدرّسنا في تلك الفترة طارقي آخر من طوارق النيجر، وهو القاسم البيهقي رحمه الله تعالى، الذي كان يدرّسنا مادة التاريخ، وقد أهدى إليّ خاصة بعض ما كتبه في تاريخ المنطقة قبل نشره في مجلة حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، وكان الرجلان الطارقيان من أفاضل أساتذتنا بالنيجر، ويحظيان بحب جميع الطلبة لحسن سيرتهما، ونسأل الله تعالى أن يكثر من أمثالهما في أبناء المنطقة أسودهم وأبيضهم.

(٣) انظر التفاصيل في: التوارق عرب الصحراء، للقشاط، مصدر سابق، ص ٢٨ ، ٣١.

(٤) تاريخ السودان، للسّعدي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥) أسكيا الحاج محمد، د. منصور فاي، مصدر سابق، ص ٩١ ، ٩٢، نقلاً عن تاريخ الفتاش لمحمود كعت.

ما أنزله بالمدينة الإسلامية من قسوة عيبت عليه»[١]، وبعد سرد تفاصيل هذه القصة في موسوعته يعقّب عليها الدكتور أحمد شلبي قائلاً: «وكان من الأجدر أن تُعاب على الحاكم الغر الذي تذكر الروايات أنه اضطرب عندما سمع بزحف سني علي عليه بين اللجوء إلى الطوارق أو الاستسلام للزاحف الكبير»[٢].

كما أنه مما لا ريب فيه؛ أن هذه المناطق كلها ضُمّت لمملكة الصنغاي في عهد الملك أسكيا بجميع قبائلها، يقول القاسم البيهقي[٣] رحمه الله: «ويعتبر تسنّم أسكيا محمد عرش الصنغاي بداية عهد انتظام المملكة وازدهارها واتساعها حتى شملت كل أراضي إمبراطورية مالي، فشرّقت واستولت على شمال نيجيريا حتى كانو، وعلى منطقة آيير، ووصلت إلى بلاد الماندنجو والفلان غرباً، ومواطن الطوارق شمالاً، فنالت من أسباب القوة والازدهار، فقد كانت - وإلى حين سقوطها - أكثر الممالك الإسلامية الكبرى في الغرب الإفريقي تطبعاً بمفاهيم الإسلام، وسجّل لها المؤرّخون اهتماماً كبيراً بنشر العلم وتشجيع التعليم، وازدهرت فيها الثقافة الإسلامية وانتشرت اللغة العربية، فصارت جميع المعارف تُدرس بها، كما أصبحت لغة رسمية في الدواوين، وكانت خطب الجمعة تُلقى بها ثم تليها ترجمة باللغة المحلية»[٤].

ونستنتج من هذا السّرد التاريخي الوجيز الحقائق الآتية:

- أن سكان المنطقة الأصليين هم الصنغاي بقبائلهم المختلفة، وأن وجودهم في هذه المنطقة يعود لآلاف السنين قبل الميلاد.

- أن الطوارق هاجروا إلى هذه المناطق، وسكنوا مع أهلها، بعد البعثة النبوية بفترة، وكان لهم دور في نشر الإسلام والعلم بالمنطقة إلى جانب إخوانهم السودانيين والعرب، وكان تركّزهم في الصحراء أكثر منه على ضفاف النهر.

- وأن الطوارق قد حكموا منطقة تمبكتو مدة ٣٥ سنة، من عام ١٤٣٣م إلى العام ١٤٦٨م، أو ٤٠ سنة كما ذكر السّعدي، وكانت تمبكتو محكومة من قِبل مالي قبل ذلك، ثم من قِبل الصنغاي بعد ذلك، ثم من قبل المغاربة بعد سقوط دولة الصنغاي.

- أن الشعوب كانت متكاملة متعاونة على إدارة شؤون المملكة، وخصوصاً في عصر الملك أسكيا محمد وسلالته، فقد انصهرت جميع القبائل في بوتقة الإسلام، السودانية منها والطارقية والعربية.

- وأن أبناء هذه المنطقة كانوا جميعاً يعتزّون بانتمائهم السوداني، أبيضهم وأسودهم، ومما يدلّ على ذلك عنوان كتاب التاريخ الذي كتبه العلامة عبد الرحمن السّعدي؛ حيث سمّاه «تاريخ السودان»، وهو يتناول تاريخ المنطقة بكاملها، واعتزاز «أحمد بابا» الشديد بهذه المنطقة وعلمائها السود والبيض؛ حيث تحدّث عن بعضهم في كتابه الجليل (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)[٥].

- وأن النزاعات التي كانت تحدث بين القبائل كانت سيادية، ولم يكن للعنصرية فيها دور، بدليل عدول الملك سني علي بير عن مهاجمة تمبكتو لمجرد رسالة تطمئنه بولاء المدينة وحاكمها لمملكته.

- وأن هذه المنطقة - أقصد شمال مالي التي تضم أقاليم تمبكتو وجاوو وكيدال - كان اسمها التاريخي هو: دولة الصنغاي، فمملكة الصنغاي، فإمبراطورية الصنغاي.

وأما الاسم الذي تتداوله وسائل الإعلام اليوم للتعبير عن المنطقة، وهي لفظة «أزواد»، والتي يسعى بعض إخواننا الطوارق وبعض العرب لإلصاقها بالمنطقة، فيُعد التعبير بها عن المنطقة تزويراً وتجنياً على الحقيقة التاريخية المكتوبة بأيدي المؤرّخين العرب والطوارق والغربيين قبل السودانيين أنفسهم.

ولم أعثر على كاتب أطلق كلمة «أزواد» على كامل

---

(١) تاريخ السودان، لعبد الرحمن السّعدي، مرجع سابق، باريس ١٩٨١م، ص ٦٤ ، ٦٥.

(٢) د. أحمد شلبي: تاريخ العالم الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢ - عام ١٩٨٧م، ص ٢٦٤.

(٣) هو القاسم البيهقي الذي أشرت إليه عند حديثي عن محمد أحمد الشفيع، فهو من طوارق النيجر الطيبين.

(٤) القاسم البيهقي: بعض مراكز الإشعاع الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء، موضوع منشور في حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد الثالث، ص ٤٠ ، ٤١.

(٥) لقد ترجم «أحمد بابا» في هذا الكتاب لشيخه السوداني محمد بغايوغو، وبالغ في وصفه وصلاحه، كما تحدّث عن علماء آخرين، يمكن الرجوع إلى حياتهم في الكتاب في التراجم رقم: ١٣٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٦، ٢٦٧، ٢٧٠، ٣٢٦، ٤٥٨، ٤٥٩، ٧٣٠،ة ٧٣٦، ٧٤٦ وغيرها، وانظر: كذلك تاريخ السودان، للسّعدي، ص ١٦ - ٦٣.

شمال مالي؛ لأن هذا لا يوجد في مصدر تاريخي، ولذلك عندما تحدّث أستاذي محمد أحمد الشفيع (الطارقي) عن مناطق وجود الطوارق؛ ذكر من بينها: أزواغ في النيجر، وأزواد ومنحنى نهر النيجر في مالي، ثم قال: «وهي - يعني أزواد ومنحنى نهر النيجر - المناطق الواقعة في شمال جمهورية مالي الحالية (ولايات تمبكتو وجاوو وكيدال)»[1]، ولو كان التعبير عن هذه المنطقة كلها باسم «أزواد» يصح لما احتاج لعطف «ومنحنى نهر النيجر» على «أزواد»؛ لأن العطف يقتضي المغايرة.

ثانياً: من يحرّك هذه الأزمات في مالي؟

إن ما يجري اليوم في مالي، وخصوصاً في شمالها، هي الرابعة من سلسلة فتن عرفتها الدولة في العقود الخمسة الماضية، كانت أولاها: تمرّد عام ١٩٦٣م، ثم تمرّد عام ١٩٩٠م، ثم تمرّد عام ٢٠٠٦م، ثم الفتنة الحالية التي انطلقت شرارتها الأولى في مدينة ميناكا يوم ٢٠١٢/٠١/١٧م.

فالتمرّد الأول (١٩٦٣م) قام به الطوارق، ويعبّرون عنه في كتاباتهم باسم «ثورة كيدال»، وأما الثاني (١٩٩٠م) فقامت به مجموعات من قبائل الطوارق ومعهم بعض العرب الماليين، تحت رايات مختلفة، قومية ودينية، وكان أشمل من غيره، والتمرّد الثالث (٢٠٠٦م) قام به أيضاً بعض الطوارق، ولم يكن شاملاً، ولكن في كلّ هذه الفتن أو التمرّدات لم يتمكن المتمرّدون من السيطرة على مدينة من مدن الشمال، وإنما كان هدفهم الجوهري إنهاك الحكومة المركزية لإرغامها على التفاوض معهم من أجل تحقيق بعض المطالب التي سنتحدث عنها في الفقرة التالية.

وأما التمرّد الحالي؛ فبالرغم من أنه ليس شاملاً؛ فإنه يعد الأخطر لسببين:

١ - أن من مطالب قادة هذا التمرّد فصل شمال مالي عن الدولة.

٢ - أن المتمرّدين سيطروا عسكرياً على جميع هذه المنطقة بمساعدة جماعات إسلامية متشدّدة محلية وخارجية.

فما حقيقة الذين يقفون خلف الأزمة الحالية في مالي؟

يقف خلف الأزمة الحالية جبهتان أساسيتان بهدفين عريضين متناقضين، وهما:

الأولى: الحركة الوطنية لتحرير أزواد:

وهي حركة علمانية مسلّحة وسياسية، تتألف من بعض طوارق مالي[2]، وهم الذين أشعلوا في الحقيقة فتيل الأزمة الحالية بمهاجمة مدينة ميناكا التابعة لإقليم جاوو يوم ١٧ يناير ٢٠١٢م، ومطلبهم الأساسي الذي لا يقبل التفاوض - حسب تصريحهم الأول - فصل المناطق الشمالية عن بقية الدولة، وتأسيس دولة قومية للطوارق بها باسم «جمهورية أزواد»، والإشكالية الكبيرة التي تواجه هذا المطلب أنه غير واقعي لأسباب؛ أهمها: أن الطوارق ليسوا متفقين عليه.

ثم إن الطوارق لا يمثّلون في شمال مالي إلا ١١٪ من بين السكان، والبقية سودانيون من الصنغاي والفلان والرماة والعرب وغيرهم، ممن لا يوافقون بتاتاً على هذا المطلب، وهذا ما انتبه له القوم أخيراً، يقول أحد كتّاب الطوارق الشباب: «ومما زاد التعقيد محليّاً أن المنطقة لا يقطنها الطوارق فحسب، بل فيها السنغاي، والفلانيون، والعرب، وغالبية الإثنيات هذه لا ترغب في الاستقلال، ولا يريحها أن تكون في ظلّ دولة طارقية الحكم!»[3].

الثانية: جماعة أنصار الدين وحلفاؤها:

وهي حركة إسلامية طارقية بشكل أساسي، تهدف إلى تطبيق الشريعة بما فيها الحدود في جميع أرض مالي، وقد تحالفت الجماعة مع تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وحركة التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا، حتى مع جماعة بوكو حرام النيجيرية، وهي

(١) محمد أحمد شفيع: العلاقات العريقة بين مناطق الشمال الإفريقي وجنوب الصحراء الكبرى وغرب إفريقيا في مجال الثقافة العربية، مقال منشور في مجلة حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، عدد ٣ - ١٩٩٧م، ص ٦١.

(٢) أقول: «من بعض طوارق مالي»؛ لأن كثيراً من الطوارق لم يقبلوا الانضمام لهذه الفتنة، بالرغم مما يلصقه بهم المتمرّدون من صفة الخيانة لأمّتهم، ويمارسون مهامّهم بثبات في المناطق الجنوبية، كما أن كثيراً ممن انضموا لهذا التمرّد انضموا إليه ليس قناعة به؛ ولكن خوفاً من أمرين: أحدهما: ألا يُوصفوا بالخيانة من قِبل المتمرّدين، والثاني: الخوف من أن يكونوا ضحايا لانتقام زملائهم السود الذين قد يتصرفون خارج القانون والضوابط العسكرية؛ لأنهم يرون كلّ هذه التمرّدات يقودها طوارق.

(٣) محمد أغ محمد: مقال بعنوان: محاولة تشخيص وحلّ للأزمة الأزوادية، منشور بتاريخ ٢٠١٢/١٢/٣١م، في وكالة أنباء أزواد، انظر: http://azawadpress.com/opinions/٥٠١٢٠١٢١٢٣١١٧١٨٣٥.html

الملف

كلها حركات إسلامية مسلحة، تتبنّى الفكر الجهادي ضد الحكومات الإسلامية التي لا تطبّق الشريعة في العقوبات.

وقد تعاونـت الجماعات الإسـلامية مـع الحركة العلمانية الانفصالية لطرد القوات النظامية من الشمال، الأمـر الذي تم لها بتاريخ ٢٠١٢/٤/١م بالسـيطرة على مدينة تمبكتو، بعد سيطرتهم على جاوو وكيدال قبل ذلك.

وقام تعايـش متوتّر بين الطرفين بعـد ذلك، انتهى بمعركة جاوو الذي قتلت فيها الجماعات الإسلامية بعض مقاتلي الحركة الانفصاليـة، وطردوا قادتهم من المدينة التي كانوا أعلنوها عاصمة لدولتهم في شهر يونيو ٢٠١٢م.

وبهذا أصبح الإسـلاميون منفردين بالسيطرة على المناطق الشـمالية كلها، وأما الحركة الانفصالية فأصبح وجودها يقتصر على وسـائل الإعلام فقط؛ حيث انضم مقاتلوها لأنصار الدين، أو لجؤوا للدول المجاورة، أو بقوا متخفين داخل مالي دون سلاح.

هذا هو الوضع الذي ظللنا عليه طيلة الأشهر السبعة الماضية؛ لوجود مسـاع محليّة ودولية كبيرة تُبذل لإنهاء الأزمة بالمفاوضـات والطرق السـلميّة منعاً لأي تدخّل أجنبي في دولة مالي الإسلامية.

ولكـن الجميع فوجئوا بـأن الحركات الإسـلامية المتشدّدة التي تسيطر على المناطق الشمالية تهدّد دولة مالي بتوسـيع عملياتها نحو الجنوب؛ بدعوى أن سلطات مالي غير جادة في المسـاعي السـلميّة، وخصوصاً بعد اسـتصدارها قانوناً من الأمم المتحدة لشرعنة التدخّل العسكري الأجنبي لتحرير المنطقة من سيطرة الجماعات المسلحة في حال إخفاق المساعي السلميّة.

وكان المجتمـع الدولـي قد وضع مهلة للمسـاعي السـلميّة تمتد إلى شـهر سـبتمبر ٢٠١٣م، لكن القوة العسكرية هاجمت مدينة كونا في وسط البلاد وسيطرت عليهـا، تفادياً لأية مفاجأة مؤلمة قد تؤدي لانهيار الدولة بكاملهـا، أو على الأقل تكرار تجربة جاوو المؤلمة عندما سـيطر عليها الطوارق يـوم ٢٠١٢/٣/٣١م؛ حيث خربّوا الممتلـكات العامة والخاصة، ونهبـوا محتوياتها، وهكذا وجدنا أنفسنا في الوضع الحالي الذي ندعو الله أن ينهيه بما فيه خير العباد والبلاد.

ثالثـاً: ما الأفكار والتصـوّرات الباعثة للقـوم إلى هذه التحرّكات؟

لقـد علمنـا أن الذين يقفون خلـف الأزمة الحالية جهتان، هما: الطوارق علمانييهم وإسلامييهم، إضافة إلى جماعات إسـلامية مسلحة أخرى من قبائل كثيرة؛ أهمّها العرب والفلاني والصنغاي.

وفيما يخص الإسـلاميين فلن نطيـل الحديث عن أفكارهـم، بالرغم مـن أنهم هم الذين يسـيطرون على الميـدان هـذه الأيام، وخلاصـة ما نقولـه عنهم أنهم جماعات إسلامية مسـلحة، بعضهم ماليون، وخصوصاً في عناصر جماعة أنصـار الدين، وبعضهم أجانب، وهم بعض عناصر حركـة التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا، وأكثر عناصر تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وجميـع عناصر بوكو حـرام النيجيريـة، جمعتهم فكرة الجهاد من أجل تطبيق الشـريعة، على أن بعض عناصر هذه الجماعات معروفون بتورّطهم خلال العقد الأخير في خطف السيّاح الأجانب، لمبادلتهم بالمال، أو مقابل إطلاق سراح بعض عناصرهم المعتقلين.

وهذه الجماعات يوجد إجماع محلي ودولي بشأنها، وهو ضـرورة إجراء مفاوضات لحلّ الخلاف سـلمياً مع المحليّة منها، وقد بدأت إجراءات الحلّ السـلمي في كل من وغادوجـو والجزائر ومالي مع قادة هذه الحركة، ولم توقفها إلا العمليات الأخيـرة التي بدأت بتاريخ ١٠ يناير ٢٠١٣م الماضي.

وأما الأجنبية منها؛ فيـرى الجميع وجوب مغادرتهم لدولـة مالي فوراً دون شـروط مسـبقة، وعدم الجلوس معهم للتفـاوض، حتى بقية الجماعات المسلّحة يرون وجـوب خروج المسـلّحين الأجانب فـوراً، فقد جاء في البيان الختامي لما سُـمّي باسـم «الملتقى الأول لعلماء ومثقّفي أزواد» ما نصّه: «فلذا ارتأى من حضر من العلماء المجتمعيـن في ملتقى كيدال الأول لعلماء ومثقّفي أزواد: أن يجتمـع الناس علـى مبايعة السـيد الرئيس بلال أغ الشـريف والياً للمسلمين في جميع أراضي «دولة أزواد»؛ على إقامة دولة تحكم بالشـريعة الإسلامية حسب تعاليم الكتاب والسـنّة؛ على ضوء فهم السلف الصالح»[1]، كما أصدر المؤتمرون جملة من التوصيات المهمّة فيما يتعلق

(١) وهذا الكلام يفتقر إلى المصداقية، فحركة بلال أغ الشريف تؤكّد علمانيتها، وترفض إقامة دولة إسلامية، ويرفضون مجرد الجلوس على طاولة مفاوضات واحدة مع حركة أنصار الدين الإسلامية الطارقية، فهذا الكلام لا يعدو كونه من الآمال الطيبة لبعض من كتبوا البيان.

بالوحدة بين الأزواديين بما يخدم المصلحة العليا للوطن، ودعوا الجماعات المسلّحة الأجنبية للخروج باحترام من أزواد[١].

وأما الطائفة الكبيرة والمسؤولة في الحقيقة بشكل رئيس عن كلّ هذه الأزمات؛ فهي التي نريد أن نتعرف بشيء من التفصيل بعض أفكارها.

الحقيقة أنه عندما يقرأ الإنسان في الكتب التي يؤلّفها بعض إخواننا الطوارق في الآونة الأخيرة، وفي المقالات التي يكتبونها وينشرونها على مواقع الإنترنت، سواء في ذلك المواقع التابعة لهم أو المواقع الإخبارية والدعوية المفتوحة، يُقابل بأفكار تسمّم حتماً العلاقة بين الطوارق وإخوانهم في مالي، وهذه الأفكار هي التي تُبلور دائماً في شكل تمرّد وأعمال عنف.

ومن أهم هذه الأفكار:

١ - أن الطوارق ظُلموا وهُمّشوا، ومُورس ضدّهم التطهير العرقي، والإبادة الجماعية، والتهجير القسري[٢].

٢ - أن دولة مالي لم تهتم بالتنمية في مناطقنا، بل همّشتها، بينما اهتمّت كثيراً بالمناطق الجنوبية، وبذلت الأموال لتنميتها[٣].

٣ - أن الطوارق دعاة، وهم من قام بمقاومة الاستعمار والجهاد ضده بشجاعة كبيرة.

٤ - أن الصحراء ملك الطوارق، وهم سادتها، ومن ثم يجب تكوين الدولة الطارقية في الصحراء، وخصوصاً في المناطق التي يسكنها الطوارق.

٤ - أن دولة مالي دولة زنجية عنصرية ضد الطوارق، وجيشها بالنسبة للطوارق كالجزار للبهائم، يقتل الطوارق بسبب ودون سبب[٤].

٥ - أن الطوارق أكراد إفريقيا، وزّعهم الاستعمار على مجموعة من الدول، ويجب عليهم العمل على توحيد مناطقهم في دولة قومية واحدة تخصّهم، وبهذا الصدد يتساءل أحد كتّاب الطوارق: «لماذا كانت موريتانيا سبّاقة، بعد فرنسا والمجموعة الاقتصادية لغرب إفريقيا، إلى رفض الاعتراف بالدولة الحلم، التي تشبه في معاناتها الدولة الكردية التي شتّتتها الدول، ورفضت بعضها حتى الاعتراف بحق الأكراد في التفكير بلغتهم، نفس الشيء يعاني منه الطوارق الذين وزّعوا على ٤ دول في المنطقة»[٥].

٦ - عدم شعور الطوارق بالانتماء لدولة مالي، يعبّر أحدهم عن هذا فيقول: «لم يشعر الأزواديون يوماً أنهم جزء من دولة مالي، ولا مالي شعرت يوماً أنها جزء من أزواد، وبالعكس كانا دائماً خطين متوازيين عرقياً اجتماعياً وتاريخياً»[٦].

هذه بعض الأفكار التي يروّج لها هذا التيار الانفصالي، ويسمّم بها العلاقات الإنسانية والدينية بين شعب مالي المسلم، ولكن الذي يجهله هؤلاء، أو يتجاهلونه، هو أن تاريخ هذه المنطقة حظي بتدوين وتوثيق كبيرين يجعلانه يستعصي على التحريف والتبديل.

ومن أسباب ذلك:

- المنطقة كما أسلفنا لم يكن اسمها ولو مرة «أزواد»، كما سبق أن ذكرنا في المحور الأول.

- ودعوى التهميش، لا أريد الخوض فيها؛ لما يكتنفها من الحساسيات، فالحقيقة أن سكان المنطقة يعانون مقارنة بمناطق مالي الجنوبية، ولكن الحقيقة أيضاً أن سبب هذه المعاناة بيئية أكثر من كونها سياسية، فمنطقة شمال مالي منطقة صحراوية لا تنتج مثل ما تنتجه المناطق الجنوبية من المحاصيل الزراعية.

- ومحاولة وصف الماليين بالظلم دعوى مغرضة عارية عن الصحة، بل يكذّبها الواقع والتاريخ، فالواقع يشهد أن الشعب المالي مسالم ومحب للآخر، وخصوصاً

(١) بيان الملتقى منشور على هذا الرابط: http://ar.mnlamov.net/index.php/thenews/20920120624092100.html

(٢) أحمد ناصر السوقي: مقال: جمهورية أزواد الديمقراطية والتحديات، منشور في: http://www.azawadpress.com/opinions/259q23.html

(٣) المقال السابق نفسه، لأحمد ناصر السوقي.

(٤) للاطلاع على مزيد من مثل هذه الأفكار؛ انظر كتاب: الرجال الزرق، الطوارق... الأسطورة والواقع، لعمر الأنصاري.

(٥) محمد نعمة عمر: مقال: لم نحرم الرجال الزرق حقهم في تقرير المصير؟، منشور في: http://www.azawadpress.com/opinions/272qq34.html

(٦) امشاروق أكلي شكا: مقال: أزواد الحلم الذي أصبح حقيقة، منشور في: http://www.azawadpress.com/opinions/267q29.html

عندما يكون هذا الآخر عربياً أو طارقياً.

كما أن التاريخ يشهد ضد هذه الدعوى المضللة، ويكفي هنا أن نسوق كلاماً لابن خلدون الذي زار مالي في القرن الرابع عشر الميلادي؛ حيث يقول عن أهل مالي: «فمن أفعالهم الحسنة قلّة ظلمهم... ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب... ومنها مواظبتهم للصلوات، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقّهم التقصير في حفظ القرآن الكريم، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه»[١].

- وما يُذكر من الاضطهاد ليس عليه دليل، وإنما يقصد به ردّ فعل الدولة على أعمال التمرّد، والمدنيون الذين قد يروحون ضحايا لمثل هذه الأعمال المسلّحة حيثما وجدت، أما أن يقصد الشعب الطارقي بالقتل لمجرد هويته الطارقية فأمر بعيد الحدوث في مالي، وأنا من شمال مالي أعرف العلاقة المتميزة التي تربطنا بالطوارق، والاحترام البالغ الذي نكنّه لهم.

- والاعتزاز بمقاومة الاستعمار ليس حكراً على قبيلة دون أخرى في مالي، فجميع قبائل مالي قاومت الاستعمار الفرنسي ببسالة، وقدّمت آلاف الشهداء في ذلك؛ بل إن الماليين الجنوبيين قاوموا الاستعمار مدة تزيد على عشر سنوات قبل أن يبدأ الشماليون بمقاومته، وفي هذا يقول القشاط: «وما أن وصل الفرنسيون في زحفهم إلى أرض الصحراء الكبرى، حيث يقيم الطوارق، حتى هبّوا مدافعين عن صحرائهم وعن دينهم، وخاضوا معارك مشرّفة ضد المستعمرين بسلاحهم البدائي، ولم يكونوا وحدهم في هذا الشرف، بل كان معهم الكثيرون من القبائل العربية في المنطقة، وغير العربية، كالهوسا والفلان والبامبارة وجرما والتبو والقرعان والشواة، وكانت هذه المجموعات يجمعها الدين المشترك والدفاع عنه»[٢].

- أما أن هذه المناطق تختلف عن دولة مالي، وأنها لم تخضع لها قط، فدعوى عجيبة يردها التاريخ؛ إذ المعلوم أن مالي هي التي كانت تحكم تمبكتو قبل الطوارق والصنغاي، وأن أحد سلاطين مالي بنى في تمبكتو المساجد، واستقدم إليها العلماء، ووفّر لمكتباتها الكتب النافعة والنادرة، كما سبقت الإشارة إليه، وكما يقول المؤرّخ السنغالي منصور فاي رحمه الله: «وكان السبب في وصول مدينة تمبكتو وغيرها من مدن مالي إلى هذه المكانة؛ هو عناية هذا السلطان - يقصد منسا كانكو موسى - بشأن العلم والعلماء، فمن المعلوم أنه استقدم عدداً كبيراً من العلماء إلى بلاده، خاصة من القاهرة والمغرب والأندلس، حتى قام بالتدريس في جامعة تمبكتو فقهاء عصره من شتّى البلدان والأقطار... كما اشترى خلال رحلة حجّه المشهورة عن طريق القاهرة عدداً كبيراً من الكتب لكي يستفيد منها أهل بلاده، فامتلأت البلاد بالكتب وبالعلماء من السودانيين وغيرهم، واشتهرت مدينتا تومبوكتو وجاوو على وجه الخصوص لكونهما مركزين للدين والتجارة فضلاً عن الشهرة العلمية؛ حيث عاش العلماء في أمن ورفاهية تحت رعاية سلطان البلاد»[٣].

والآثار الإسلامية الموجودة في تمبكتو وجاو وجني وغيرها، والتي نعتز بها اليوم، هي من إنجاز الملوك السودانيين، وبخاصة الملك المالي كانكو موسى، وملك الصنغاي أسكيا الحاج محمد.

- وأما كون الطوارق موزعين على أربع دول كالأكراد، فهذه الحقيقة المرّة لا يعانيها الطوارق والأكراد فقط، وإنما هي ظاهرة تعانيها جميع الشعوب التي كانت مستعمرة، وتجاوز الآثار السلبية لهذا التوزّع العرقي تحتاج إلى ممارسات حضارية واعية، لا تقضي على العلاقات البشرية والدينية، ولا تصطدم بثوابت الدين الإسلامي.

رابعاً: التصوّر المستقبلي لواقع المنطقة وواجب أبنائها:

بالنسبة للمسلمين الإسلاميين؛ فستؤثر تجاوزاتهم حتماً في وضع الدعاة والنشاطات الدعوية في مالي، فسيكون الدعاة الصالحون محلّ مساءلة وغرضاً أمنياً في الدولة إلى وقت لا يعلم مداه إلا الله، كما أن فعلهم هو الذي أعطى الغرب مسوّغاً للتدخّل العسكري في مالي المسلمة المسالمة.

وأما الفكر الانفصالي العنصري وما يبطنه؛ فنقول بشأنه: إن هذا التفكير الذي يروّج له بعض إخواننا

---

(١) القاسم البيهقي: بعض مراكز الإشعاع الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء...، مصدر سابق، ص ٣٩.

(٢) التوارق عرب الصحراء، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

(٣) د. منصور فاي: الملامح الحضارية...، مصدر سابق، ص ٢٧، ود. منصور فاي متخصّص في تاريخ السودان، وله كتابان قيّمان فيه، وكان أستاذنا في التاريخ في الجامعة الإسلامية بالنيجر، رحمه الله رحمة واسعة.

الطوارق، وبدأ يجد صدى لـدى بعض إخواننا العرب، وخصوصـاً في موريتانيـا المجاورة، ينذر بمسـتقبل مجهول لهذه المنطقة.

ولهذا أذكّـر الغيورين الصادقين مـن أبناء مالي بشكل عام، وأبناء شمال مالي بشكل خاص، بما يأتي:

- أن سـكان هذه المنطقة كانوا يعيشـون في ظلّ الإسلام كالجسـد الواحد، يتعاونون على تقدّم الدولة ونشر الدين الإسـلامي ولغة القرآن الكريم، فكان ملك مالي كانكو موسـى يجلب العلماء وكتـب العلم لجميع مراكز الدولة، وعلى رأسها مركز تمبكتو.

- وكان الملك أسـكيا محمد، وسـلالته من بعده، يخدمون أهـل العلم في هـذه المنطقـة، ويقلدونهم المناصـب الدينيـة دون اعتبار عرقي، بل إن أسـكيا محمـد بنى بيتاً فـي مكة خلال رحلـة حجّه، وجعله للحجاج السودانيين.

- نعم كنّا متّحدين، ولم يفرقنا إلا هذا الاسـتعمار الغربي البغيض، ولله! درّ شـيخنا محمد أحمد الشفيع حيـث يقول: «لقد خلق الإسـلام وحضارتُهُ من منطقة شـمال إفريقيا والصحراء الكبـرى والجزء الأكبر من السـودان الغربي، وجزء من السودان الأوسط الواقعين جنـوب الصحراء الكبرى، منطقة حضارية، متشـابهة القسـمات الثقافية، ومتشـابكة العلاقات البشـرية والدينيـة والسياسـية والتجاريـة والاقتصادية بصفة عامة... وقد استمرت تلك العلاقات الإنسانية العريقة التي حقّقها الإسـلام حتى جاء الاسـتعمار الغربي في القرنين التاسع عشـر والعشرين الميلاديين، فاستولى علـى هـذه المناطق، وعمـل على القضـاء على تلك العلاقات الحضارية العريقة»[١].

ويقول أيضاً: «وقد أحدث الاسـتعمار الغربي منذ احتلالـه لتلك المناطق انقطاعاً خطراً في العلاقة بين سكان هذه المناطق؛ مما أدى إلى فترة ارتباك حضاري خلال فترة الاحتلال الأوروبي»[٢]، فهل نكون نافخي كير هذه الفتنة الطائفية التي خلّفها الاستعمار بيننا، والتي تدلّ على ضيق الأفق والتقوقع على النفس.

- أن هذا الأسـلوب الذي سـلكه بعـض إخواننا الطـوارق لا يخدم مصلحة أحد منّـا، والأمة الطارقية هـي التي تتضرر قبل غيرها بتبنّي هذا النهج، فواجبنا نحن المسلمين نبذ الطائفية والعنصرية، والاتجاه نحو أسـباب ترسيخ التعايش السلمي بين شعوب مالي فيما بينها، وبين شعوب مالي وبقية شعوب العالم.

- أدعـو المثقفيـن في هـذه الدولـة، وبخاصة العلمـاء منهـم، أن ينهضوا من غفوتهـم التي طالت، ويهبوا للإسـهام الفعّال في نهضـة بلادهم، بالالتفاف حول الحـقّ ونصرته، ودحض التخلّـف والرجعية بكل أساليبهما، ونشر الإسـلام الوسط المعتدل الذي بلّغه رسـولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فنحن أمة وسط، وأي تشدّد وتطرّف في ديننا يعطي عدوّنا - وهو أقوى منّا بجميع المقاييس المادية - ذريعة لضربنا اسـتناداً لقوانينهم التي ألبسوها صفة عالمية، فالحكمة الحكمة أيها الإخوة!

- أن هذه المنطقة هي اليوم شـمال مالي وحسب، وأي محاولـة أخرى لفصلها وتأسـيس دولة قومية بها لجنس واحد من سـكّانها يُعد مطلبـاً عنصرياً وإثارة لفتنـة ضحاياها الأول هم سـكان هـذه المناطق قبل بقية الدولة، ولو تبنّت جميـع القبائل مثل هذه الفكرة لأصبحـت الدنيا كلها براكين من الفتن تغلي؛ لأن جميع القبائل قام الاسـتعمار بتجزئتها فعـلاً بين عدة دول، فواجبنـا هو البحث عن حلّ يمنع هـذا التجزؤ من أن يكون حاجزاً بيننا، يمزقنا ويحول دون تكاملنا وتواصلنا.

- أن المسلم ينبغي له أن يتأسف على هذه الحدود المصطنعة بين الدول الإسـلامية، ويعمل جهده حتى لا تكون سـبباً لإضعاف الأمة الإسلامية؛ إذ الواجب على كلّ مسـلم غيور اليوم هو العمل علـى تحقيق الوحدة الفكرية التي سـتنتهي بالوحدة الترابية بين المسلمين، وهـذا يعني أن نكـون ممن يتصفون بسـعة الأفق في التفكير والطرح.

- التحاور التحاور يـا أبناء مالي! إن الذي يمزقنا اليوم هو عدم الحوار، فقد صيّرنا هذه الحدود الوهمية حواجز فولاذية تقف دون التحامنا وتبادلنا للآراء.

اللهمّ! أبرم لهـذه الأمة أمر رشـد، يُعز فيه أهل الطاعة، ويُذلّ فيه أهل المعصية، ويُؤمر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر، ويُحكم فيه بكتابك، اللهم آمين!

---

(١) محمد أحمد شفيع: العلاقات العريقة بين مناطق الشمال الإفريقي...، مصدر سابق، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٤.